مجموعة محمد وصحبه :

سائل بار
و
بين أخوين

إعداد

أمير سعيد السحار



رسوم

عبد الرحمن بكر

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى بالفجالة

سائل بار !!

كان أُسَيْد بنُ مالكِ بن ربيعةَ رضى اللّه عنه من الأبطالِ المجاهدينَ الّذين شهِدوا بدرا ، وأحُدا ، والمشـاهدَ كلَّهـا مع رسولِ ﷺ . وابتلاه اللّهُ سبحانَه آخِـرَ آيامـه قبل مقتِـلِ عثمـانَ - رضى اللّه عنـه - بالعمَى ، وفقْـدِ البصر ، فرفع بذلك درجتَـه ، وأعلى مكانتَـه .

وكان أسيدُ يُحبُّ الرّسولَ الكريـم ، ويحـرِصُ على ما يُقالُ فيـه مـسائلِ الدِّيـنِ ، ومسائـلِ العِلـمِ والعِرفان .. وبينما هو ذاتَ مرّةٍ فى مجلسِ الرسولِ ، أقبل رجلٌ من بنـى سلَمَة ، وفى نفسه شىءٌ يُريد أن يستوضحَ فيه رسولَ اللّه

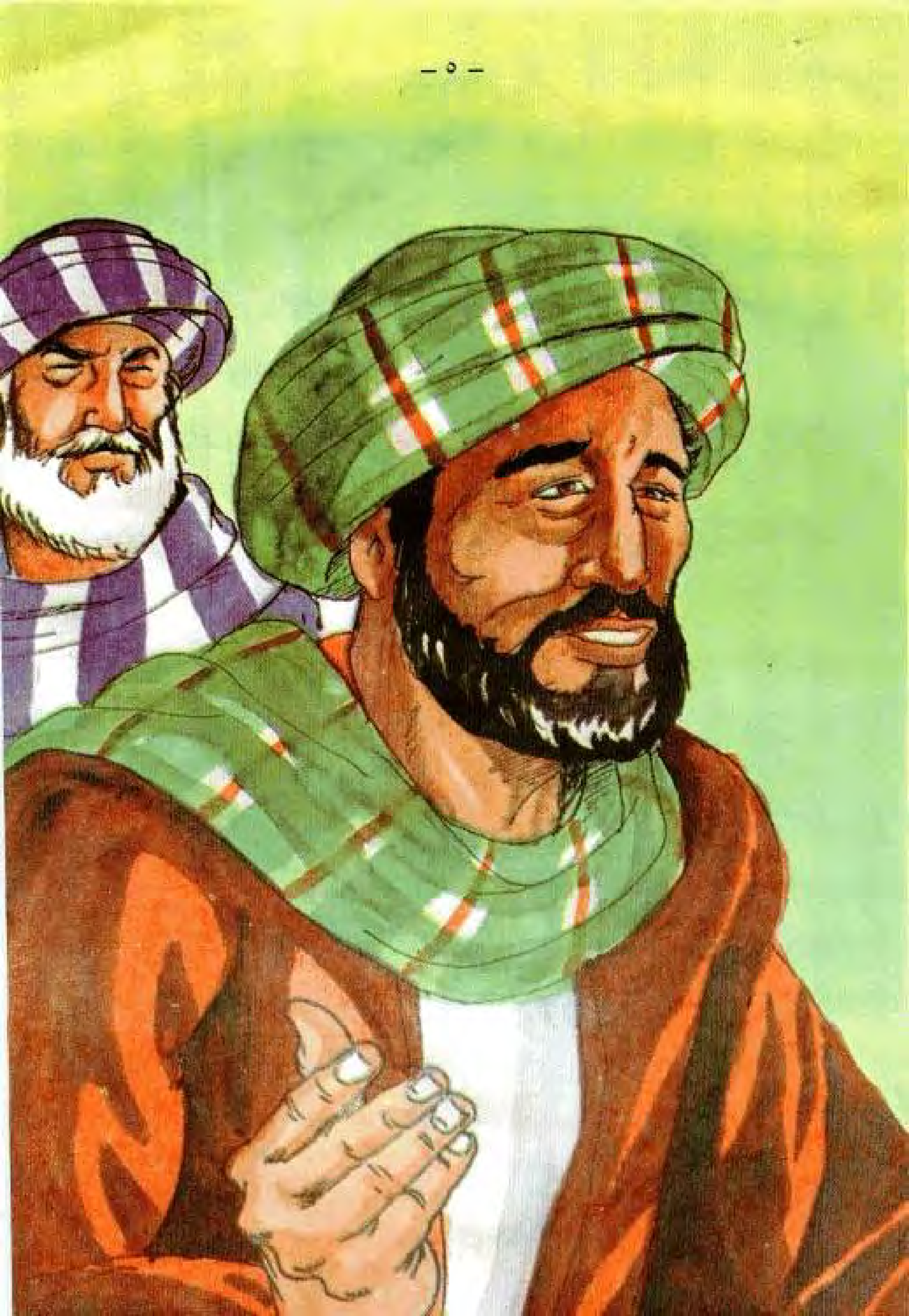


فقال فى احترامٍ ووقار :

ـ يا رسولَ اللّه ، هل بقى من برِّ أبوىَّ شىءٌ أبرُّهما به بعدَ موتِهما ؟ لقد بذلتُ كلَّ ما فى وسعى من البر لهما ، وطاعتِهما أثناءَ حياتِهما ، وأعتقدُ أنّه من البرِّ لهما بعدَ الممات أن أبحثَ عما يُفيدُهما ، ويُنزلُ عليهما رحمةً وعطفا.. !!

وأصاخَ منْ فى المجلسِ حولَ الرَّسول ، فهذا سؤالُ كلِّ فرد ، ومسألةٌ تَعنى كلَّ إنسان .. فمن لا يُريدُ أن يَبرَّ والِديْهِ بعدَ الممات حتّى يتّصل البِرّ، ويبقى الفضلُ والوُدّ .. ؟





فقال عليهِ الصَّلاة والسَّلام :

ـ نعم ، الصلاةُ عليهِما ، والاسْتِغفارُ لهما وإنفاذُ عهدِهِما من بعدِهِما وصِلةُ الرَّحِمِ الّتى لا توصلُ إلاَّ بِهِما ، وإكرامُ صديقِهِما .. !!

وانعقدَ ما بين الحَواجِب ، ولاحتْ علائمُ الفِكرِ على الوُجوه ، وراحَ كلُّ فردٍ من هؤلاءِ الأفذاذِ يفكّرُ فيما سمع .

فهذا لا يكادُ يفهم معنَى الصّلاةِ على الوالِدَين ، فهو يُصلّى الصَّلاةَ المفروضة ، وهى أقوالٌ وأفعالٌ تبَتدئُ بالتّكبير ، وتنتهى بالتّسليم على كيفيةٍ خاصَّة بأركانٍ وشروطٍ مَعلومَة ، ولكنّه يفهمُ أيضاً

أنَّ الصَّلاة على الرَّسولِ هو الدُّعاءُ له ، والصَّلاةُ من اللّهِ سُبحانَه وتعالى هى الرَّحمة . إذن فالصَّلاة على الوالدين الدُّعاءُ لهما بالرَّحمة ، والمغفِرَة ، والعفوِ الشّامل ، الذى يمحو الذَّنب ، ويُعلى المكانةَ والمنزلة .

وهذا يفهم معنَى الصَّلاة، ولكنه يعرف أيضاً أنَّ الاسْتغفارَ هو طلبُ المغفِرة ، والصَّلاةُ تفيد هذا المعنى .. إذن فلا مَناصَ من اعتبارِ الصَّلاة أعمّ ، وأشمل .

وأمّا الثّالث فيعرِفُ هذا كلّه ، ويعرِفُ كذلك إنفاذَ العهدِ وهو كلُّ ما قطعاه قبلَ المماتِ على أنفُسِهما ، من وصيَّةٍ وصدقة وتبرُّعٍ للفُقراءِ والمساكين ، إلى غير ذلك مما تجرى به العادةُ قبل الوفاة ، وخاصّةً إذا طالَ مرضُ الموت ، ولكنّه يُعجَب لأنَّ هذه الأشياءَ تكادُ تكونُ طبيعيةً فى النّفس ، وخاصةً صِلَة الرَّحِم ، وإكرامَ صديق الوالِدَين ،

فكيف يُعطى اللّهُ ثواباً على هذا ؟ ثمّ كيف يكونُ هذا برًّا بالوالدين بعد موتهما ؟! إنّ اللّه سبحانَه مهّدَ للإنسان طريقَ الخيرِ إلى حدٍّ كبير ، وجعل له فُرصَةً سانحةً فى كلِّ عملٍ من الأعمال . إنّه مُجرّدُ الفضلِ العظيم والمِنّةِ الجليلةِ الّتى لا تقِفُ عند حدّ .. وهل بعد إثابةِ اللّهِ العبدَ على إتيانِهِ أهلَه ، ولذّتِه الّتى يهواها ويُحبُّها ، ومُتعته الّتى يسعَى إليها ويُريدُها ـ هل بعد هذا عجبٌ ودَهشة .. أجل إنّه الفضل ، والفضلُ الإلهىُّ لا غير ـ وليس أدلَّ على ذلك أيضاً من النّيةِ واتّجاهها إلى الأعمال .. إنّ الإنسان يأكل ويشرب ، وفى مُكنَتِه أن يُحوِّلَ هذا كلّه إلى عملٍ فيه أجر ، وعِبادةِ اللّهِ جلّ شأنه ، وذلك حين يقصِدُ بطَعامِه وشَرابه أن يُقوّيه اللّهُ على عبادتِه ، ويُعينَه على المجاهدةِ والمصابرة ، ومُناضلةِ النّفس والهوَى والشّيطان .. !!

وبقى السّائلُ فى نفسِهِ خلجَةٌ حائرة.. فهو لا يدرى





علی وجهِ التّحقیقِ کیف یصلُ هذا الأجرُ وذلكَ الثّوابُ ، إلی والدیه ، مع أنّهما قد فارقا الحیاة ، واللّه یقول : « وأن لیس للإنسان إلاّ ما سعَی » بید أن تفکیرَه لم یُطل ، وسرعانَ ما زالت تلك الخلجةُ المضطربة ، حینما تذکّر أنَّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه وسلَّم قال :

« ینقطع عملُ ابنِ آدمَ إلاّ من ثلاث : صدقةٍ جاریة ، وعلمٍ یُنتفعُ به ، وولدٍ صالحٍ یدعو له .. » .

ثم علم کذلك أنَّ السَّبب فی ذلك واضحٌّ إذا أنعمَ النَّظر ، وهو أنَّ والدیه سببُ وجودِه . کأنّما عملُه الصّالحُ امتدادٌ لعَملهما ، وهنا أخذته موجةٌ من الفرحِ والابْتهاج ، إذ عرفَ مِفتاحَ السّرِّ الّذی یرجوهُ ویتمنّاه .. عرَف کیفَ یبرُّ بوالدیه بعد مماتِهما ، وقام من مجلسِ الرّسولِ وکأنّما هو قطعةٌ مجسَّمةٌ منَ النَّشاطِ والفَرَح .. إنّه یسرعُ یریدُ أن لا یُضیّعَ علی والدیه فرصةً ما دام حَیّا ..

بين أخوين .. !!

لم يكن مُحمَّدُ بن الحنفيَّةِ بالرَّجُل الغِرِّ ، الّذى يُخدَع بكلامِ النَّاس ، ويُنصتُ لوشاياتهم ، ويستمعَ لأقاويلهم .. فهو ابنُ علىّ بن أبى طالبٍ كرَّم اللّهُ وجهه .. عريقٌ من هذه النَّاحية ، فيه مناقبُ الطَّالبِيّين من جُرأةٍ وإقدامٍ ، ومُروءةٍ وشَهامة . وهو ابنُ خولَةَ بنتِ جعفر الحنفِيَّة . ولهذا يُنسَبُ إليها تمييزا له عن أخويهِ الحسنِ والحُسَينِ رضى اللّهُ عنهم جَميعاً . وله من والدتِهِ طِباعٌ ومَحامدُ كانت له صَفَحَاتٍ بيضاءَ فى حياته بين شتّى القبائل ، ومُختلفِ الطّبقات .



ولكن أبى أشرار النّاس وشرارهم إلاّ السّعىَ بينه وبينَ أخيهِ الحسنِ بالوقيعة ، والوشايةِ والنّميمة . وهذا دائما شأنُ بعضِ النّاس فى مُختلفِ العُصورِ والأزمان ، لا يُرضيهم أن يهنأ إنسان . أو يَطمئنَّ له خاطر ، أو يَسعدَ بالقُربِ من صَديقِه أو قَريبه أو أخيه .. ياللّه .. لكأنّما كان الصّفاءُ بينهما قُرحةً فى جسمِ هؤلاء النّمامين . وشوكةً فى ظهورهم ، ووخزةً تخزهُم ، وتؤلمُهم وتُضنيهم على الدّوام .. !!

وما أقسَى الوقيعةَ بين آلِ بيتٍ واحد ، وخاصّةً إذا كان هذا البيتُ أشرفَ البيوتِ على الزّمَن ، وأحبّها عند اللّه .

وفكّر ابنُ الحنفيّةِ فى الأمر ورأى أنّه ليس من الصّالحِ العامّ أو الخاصّ أن تتسعَ الهُوّةُ بينه وبين أخيهِ الحسن ، وأنّه لمن الظّلم البيّن ، والخُسران المبين أن يُمكّنَ الواشى ممّا يُريد ، ومن الحقّ الواضحِ والعدلِ الحَبيبِ أن يُضيّعَ عليه هذه الفرصةَ ليقعدَ بها على الدّوامِ متألّما محسوراً .

وإنّه ليعلمُ أنّ أخاهُ الحسَنَ على درجةٍ من الفضلِ والورَعِ والتّقوى لا تُدانيها درجة ، وأن اللّه سُبحانَه وتعالى بارك فى نِسائه وجعل منه الذُّرّيّةَ الصّالحة ، وأنّ ذراريه بعونِ اللّهِ ستكونُ فى طليعةِ المنتَسبِينَ إلى الرّسولِ الكريم صلواتُ اللّه وسلامُه عليه ، وأنّه رفض الدُّنيا وطلّقَها ثلاثا كما رفضها وطلّقها أبوهُ من قبل ، وأنّه يمتاز عنه بأنّه ابنُ الزّهراءِ حَبيبَةِ الرّسول ، والأثيرةُ لديه ، الطّاهرةُ البَتول ، سيّدةُ نساءِ أهلِ الجنّة . وأنّ كرمَهُ وجودَهُ بلغَ الغايَة ، وجاوزَ

النّهاية ، فلا يَـرُدُّ سـائلا ، ولا يقطـعُ نـائلا . قـوىُّ الحُجَّـة ، واضـحُ البرهان . مدَحَه شاعر ، فأجزل له العَطاء ، فليمَ على ذلك فقال :

ـ أتُرانى خِفتُ أن يقولَ لستَ ابنَ فاطمـةَ الزَّهـراءِ بنـتِ رسـولِ اللّه ، ولا ابنَ عليّ بنِ أبى طالب ، ولكنّى خفتُ أنْ يقَـول : لسـتَ كرسولِ اللّه ، صلّى اللّهُ عليـه وسلّم ، ولا كعلىٍّ رضـى اللّـه عنـه فيصدَّق ، ويُحمَل عنه ، ويبقى مُخلّداً فى الكتب ، محفوظاً على ألسنة الرواة ، فقال الشاعر :

أنت واللّهِ يا ابنَ رسولِ اللّـ ـهِ أعرفُ بالمدح والذّمّ منّى

وحقًا لقد كان الحسنُ على ما وصف الشّاعر ، بصـيرًا ـ بجانب هـذه الصفـاتِ كلّهـا ـ بمواضـعِ الكـلامِ ومواقِعِـه ، عالمًـا بأسـرارِه ومحاسِنِه ، يُلجمُ من يُحاجُّه ويُفحِمُه ، وما حادِثته مع حَبيبِ بنِ مَسلَمةَ الفَهدِىِّ ببعيد . إذ قال لحبيب :

ـ ربَّ مَسيرٍ لك فى غيرِ طاعةِ اللّه !

قال حبيب : أمّا مسيرى إلى أبيك فليسَ من ذلك .. !

قال الحسن : بلى ، لقد قعدَ بك فى دينك ، فلو أنّك إذ فعلتَ



شرًا قلتَ خيراً ، كنتَ كمن قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيِّئًا ﴾ ولكنّك كما قال ﴿ كلا بل رانَ على قُلوبِهم ما كانوا يَكسِبون ﴾ .. !

وهكذا مضى ابنُ الحنفيَّةِ رضيَ اللّه عنهُ يَستعرِضُ حياةَ أخيه الحسَن ، ويعِزُّ عليه أن تُفلحَ معهما وشايَةُ الواشى ، وكيدُ الكائد وبَغىُ الباغين !

إذنْ فعليه أن يُعالجَ الأمرَ من طريقِ الخيرِ كعادَته دائماً فى كل أعمالِه ، والخيرُ هو الطَّريقُ الواضحُ المعالم ، البيِّنُ النَّهج ، ولا يَضيع الإنسانُ إذا لزِمَه على الدّوام .. ولكنْ أيذهبُ إلى الحسَنِ ويشرحَ له الموقف ، ويطلُبُ منه الصَّفحَ والعفو ، ويرجوه أن يغفِرَ له ما قاله الواشى عنه جُملةً بلا تَفصيل ، ولا داعِيَ للنّقاشِ والملاحاة ، والأخذِ والرَّد ، فذلك حبلٌ يَطولُ ويَطول ، ولا يكادُ يصِلُ إلى غايَة ، أو يَنتهى إلى نهاية ؟! أم يُرسِلُ إلى الحسنِ رُقعةً يُبيِّن له فيها ظروفَه ، ويشرحُ حالتَه ، وهذا أسلمُ طريقٍ فى رأيِه ، إذ ربَّما يكونُ فى اللّقاء ما لا يُحمَد عُقباه ؟

وهكذا ظلَّ محمَّدُ بن الحنفِيَّةِ يُقلِّبُ الأمرَ على وُجوهِه المُمكنة ، وحالاته المختلفة ، ليصِلَ إلى أهوَنِ الطُّرق ، وأسلَمِ السُّبلِ ، وكلُّ غايتِهِ ومُناه أن يصِلَ ما يكادُ يقطعُه الواشى بينَه وبينَ أخيه ، أحَبِّ النَّاسِ إليه وأقربهم إلى نفسِه وفؤادِه ،

وأخيرًا راقت فى نظره فكرةُ الرِّسالة ، لأنَّها ستترجمُ عمّا فى نفسِه . وتُعبِّر أجملَ تعبيرٍ وألطفِه وسيكتبُها بأسلوبٍ آخرَ لم يعرف له النَّاسُ مثيلاً من قبل ، سيتنازلُ عن كِبريائهِ إلى حدّ ، وسيُحاول

جهدَ الاستِطاعةِ أن يضعَ أخاهُ فى موضِعهِ اللائقِ به ، تجلة واحتراما .. إنَّ اللّينَ والحيلةَ هما أساسُ الصّفاء والوُدّ ، ومنهلُ الإخلاصِ والعَطف ، فلِماذا لا يلوذُ بهذه الصّفاتِ الجَميلة فى ، عسَى اللّهُ أن يُفرّجَ كُربَته ؟! وكأنّما أُلهمَ هذه الفِكرةَ فقامَ من فَوره . وامسكَ بالقلم وراح يُسطّر : « أمّا بعد ، فإنّ أبى وأباك علىُّ بنُ أبى طالب ، لا تفضُلنى فيه ولا أفضُلك ، وأمّى امرأةٌ من بنى حَنيفَة ، وأُمُّك فاطِمةُ الزّهراءُ بنتُ رسولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ، فلو مُلئتِ الأرضُ بمثلِ أمّى لكانت أمُّكَ خيراً منها .. ؟!

فإذا قرأتَ كِتابى هذا فأقدِم حتى تترضّانى ، فإنّكَ أحقُّ بالفَضلِ منّى .. !! »

وقرأَ الكِتاب ، وفكّر فيه .. إنّه الحقُّ والصّدق ، فلِماذا يأنفُ من كَلِمةِ الحقّ .. ؟!

وقرأ الحسنُ الكِتاب أيضاً ، فعلِمَ أنه الحقُّ والصّدق ، فلماذا لا يذهبُ إلى أخيهِ يَترضّاه ؟! لقد عرف أخوهُ كيف يَقهَرُه ويتغلّبُ عليه !! وفى الوقتِ نفسِه حفِظَ لكلٍّ كرامتَه وعزّةَ نفسِه ، فأنعِمْ بها من فكرةٍ جليلة .

وفى لحظةٍ مباركةٍ من تلكَ اللّحظاتِ الّتى يُنعمُ اللّهُ بها على عِباده ، ويشمَلُهم بعَطفِه وحنانِه ، ويُضفى عليهم رِداءَ رحمته ورضوانِه .. فى لَحظةٍ من هذه اللّحظاتِ اجْتمعَ شَملُ الأخوَيْن ، فاكْفَهرَّ وجهُ الشّيطان ، واستَبشرتْ ملائكةُ الرّحمن ..!!